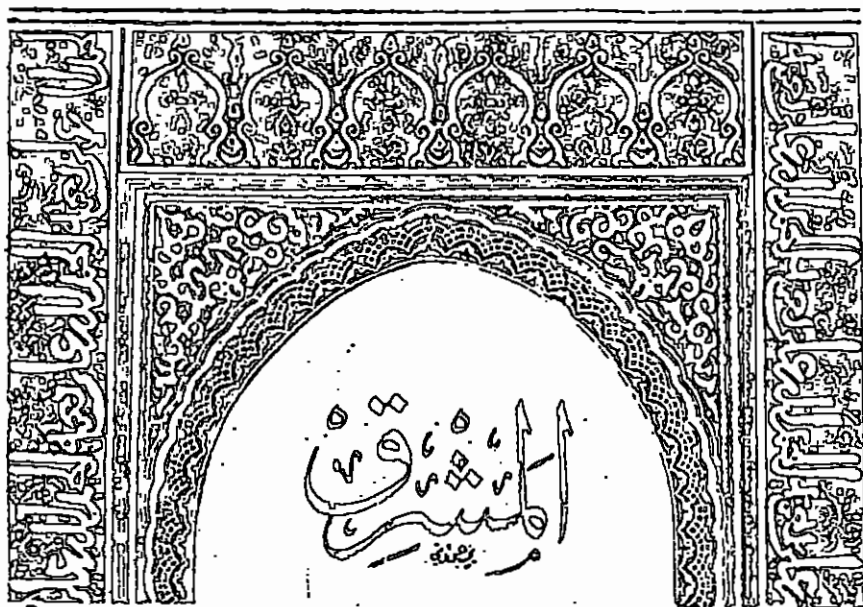




طالون الاول ١٩٣١

عيد التذكار المشرقي

لتجديد رسالته الآباء اليسوعيين في لبنان وسورية

١٨٣١-١٩٣١

خطاب حضرة الاب ده بونثيل ، رئيس اقليم ليون

نهار الاحد الواقع في الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩٣١ ، ظهرت كلية القديس يوسف بشوب قشيب من الزينة ابتهاجاً بعيد التذكار المشرقي لتجديد الرسالة اليسوعية في لبنان وسورية .

وكانت حفلات العيد قد تتأيت منذ اشهر ، فكانت اولاهما في يبروت حيث احتفلت الكلية بتكريم اربعة عشر من الآباء والاخوة الطاعنين في السن خدموا الله والشعب في الرسالة مدة خمسين سنة او اكثر . وكانت الثانية في دمشق (١٨ و ١٩ نيسان) اذ احتفل بتدشين كنيسة القديس يوحنا الدمشقي التي شيدها الآباء اليسوعيون بالمكان الذي كان فيه منزل القديس ، وشاقوا ان تكون اثرًا تذكاريًا لهذا العام اليوبيلي . وكانت الثالثة في باريس (١١ تشرين الاول) في بناية الرسالات الكاثوليكية من المعرض الباريسي النظيم ، حيث افام حضرة الاب ده بونثيل ،

رئيس اقليم ليون المرتبطة به رسالة لبنان وسورية ، قدّاماً حافلاً تراه اسقف باريس المساعد ، وحضره جم غفير من كبار الساسة الفرنسيين واركأن الجيش البري والبحري ، وبينهم السيد هونسو المنوّض السامي في بلادنا ، وعدد من رجالات الاكليريوس الشرقي والحماية اللبنانية والسورية

اما الحفلة الكبرى فكان ميمادها ، في بيروت ، الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩٣١ - وقد وصل اول اليسوعيين الى بيروت في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣١ - فتوافد المدعوون الى الكلية منذ الصباح . وعند الساعة العاشرة ، موعد القداس الكبير الذي افتُتحت به حفلات العيد ، دخلوا الكنيسة فضاقت جم على رحبها . وقد تقدّمهم من جهة اليمين ممثّل المفوضية العليا ، السيد هلاو مشدوب المنوّض السامي ، واوغست ادب باشا ، رئيس وزراء لبنان ، ممثلاً رئيس الجمهورية ، والسيد لافون ، قنصل فرنسة ، وموسى بك غنور ، وزير الداخلية ، ثم المستشارون ورؤساء المصالح والدوائر في المفوضية العليا والحكومة الوطنية . وكان من جهة الشمال قائد الجيش العام ، الجنرال دي بينوده غرانزو ، والاميرال دفيّل ، قائد الاسطول ، وكبراء الضباط في جيشي البر والبحر ، وقد جلس وراءهم اساتذة المامهد العليا في مكليتنا يبرّاتهم الرسمية ، وبينهم اللجنة الفاحصة لمهند الحقوق ، فحفلو جمية متخرجي الكلية ، فامائل القوم من السادة والسيدات ، فطلبة العلوم العليا .

اما في القورس فقد جلس الى يمين المذبح ، فوق العرش ، صاحب النياقة السيد القاصد الرسولي في سورية ولبنان مترشاً ، وازاءه من الجهة الاخرى ، صاحب النياقة السيد اغناطيوس جبرائيل قبوني ، بطريرك الطائفة السريانية ، والسيد افيديس اريباريان ، بطريرك الطائفة الارمنية ، واصحاب السيادة المطران عبد الله خوري ممثلاً صاحب النياقة بطريرك الطائفة المارونية ، والمطران نيقولاوس القاضي ممثلاً صاحب النياقة بطريرك طائفة الروم الكاثوليك ، والمطارنة اغناطيوس مبارك ، وباسيليوس قطان ، واغناطيوس نوري ، ويوحنا نازليان ، وديونيوس كفوري ، ويوسف جرجي ، ولويس بونديني . ومن يدهم رؤساء وممثلو الرهبانيات الشرقية والغربية ، ورؤساء المامهد العلمية ، ورجال الاكليريوس . واحتفل بالذبيحة الالهية الاب الجليل رئيس الآباء الكهوشيين في بيروت ، تخدمه جوقة المرتلين من تلاميذ الكلية التي انشدت الصلوات الطقسية موقّعة توقيعاً دقيقاً جيلاً .

وبعد الانجيل ارتقى الاب ده بونثيل ، رئيس الكلية السابق ، والرئيس الاقليمي اليوم ، منبر الكنيسة فحلا وقبلاً موجّهاً من وزير الكرسي الرسولي الكرديتال باشلي باسم الخبر الاعظم الى رئيس رسالتنا بمناسبة العيد المئوي ، ثم لقي الخطاب التالي تعريه :

يا اصحاب النبطة والسيادة

ايها السادة

ايها الاخوة

في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ١٨٣١ ، نزل في ثغر بيروت ثلاثة يسوعيون ، اتوا الشرق ، بعد ست وخمسين سنة ، ليستعيدوا العمل المنقطع ببراءة البابا اكليمنضوس الرابع عشر التي حلت الرهبانية اليسوعية . وصل الرجال الثلاثة يدفعهم الغم الثابت ويهيب بهم الرب والتردد . فانهم لم يكونوا يعرفوا حق المعرفة مقدرات البلاد ولا عقباتها . حتى انهم كانوا يترددون ، بعد خمسة وثلاثين يوماً قضوها على سطح البحار ، في اختيار النقطة التي يتولون فيها الى البر . وكانت تبلغ مسامهم اخبار الحرب واخبار الهواء الاصفر الى ان قئض لهم الاتفاق ، بل دفعهم دافع مفاجئ الى اختيار ثغر بيروت فزلوا فيه . كانوا ثلاثة يتطلعون مدخلاً ويفتشون عن طريق . اما اليوم فان رسالة الآباء اليسوعيين تمت مائة وخمسين عاملاً . وهي تبسط ، من مراكزها المهمة ، في بيروت ودمشق وحلب وقرق خان ، في حصص وطرطوس ، في بكفيا وغزير وزحلة وطمنايل وكداره ، نفوذها المباشر على كثير من القرى المنتشرة فيها مدارس الصبيان والبنات التي يزورها المرسلون بطريقة منظمة .

لا يحل لي ، ايها السادة ، ان اقوم بتقريظ هذا العمل ولا بالمداومة عنه . ولكن يمكنني ان اجتهد في ذكر ما اتصف به من الميزات ، اذا ما تبقت مراحل اتساعه مدة الاعوام الخمسة عشر الاولى . فترى مرسومة فيه . اولاً فكرة ليست من افكار البشر ، ونرى مظاهراً التقدم مقبولةً مخضوع وتسليم تحت تأثير حوادث ليس فيها من نصيب كبير للمشيئة البشرية ، اكثر منها مطلوبةً بسمي سابق مقرر ومتفق عليه . واذاً فيسكننا الاعتقاد ان العمل الذي يظهر امامنا اليوم ثابتاً قوياً هو ، في تركيب اجزائه ودرسه ، ما شاء الله ان يكون .

دعا اليسوعيين سنة ١٨٣١ ، السيد مظلوم ، الاسقف الرومي الكاثوليكي ، ليدبروا المدرسة الاكليريكية في عين تراز . ولكن لم يكن النجاح مكتوباً

لذلك العمل . وهو حادث عادي ان يحبط مسمى الانسان أولاً كي يعود اليه من جديد . على ان الفكرة الاولى كانت مصيبة كما سيدل المستقبل على ذلك . ولما لم يشأ الآباء الانتظار دون عمل ، اخذوا يجوبون البلاد مفتشين عن النفوس ، باحثين عن فكرة عامة تدير اعمالهم . فكانوا يتأثرون بظواهر الجهل وحالة الإهمال التي كثيراً ما كانوا يصادفون فيها سكان القرى المسيحية . وكان لهم مع المتأولة والدروز ملامسات كانت تدفعهم الى التأمل العميق . ثم زاروا بلاد حوران . وقد يكونون خطوا ، في الملامسة الاولى ، بين عناصر جنسية مختلفة ، فخيّل لهم انهم يسمعون نداء البدو . وعلى كل فقد بدأوا يشعرون بجاذبية الصحراء . وكيف لا يكون ذلك ؟ والمرسل لا يمكنه الامتناع عن سماع النداء الفاض الذي يتصاعد من نفوس لم يطلع فيها بعد نور يسوع المسيح .

ستقل عين تراز . ولكن سيُعاد العمل في المشروع على طريقة لم يفكر فيها سابقاً . وكان من ذلك المدرسة الاكليريكية التي أنشئت في غزير سنة ١٨٤٣ لا لطائفة واحدة بل لجميع الطوائف الشرقية . فضنت الحياة للمشروع على هذه الطريقة . ثم ان تلك المدرسة الاكليريكية نُقلت الى بيروت سنة ١٨٧٥ ، فاصبحت سنة ١٨٨١ كلية باوية بمهدها الماليين في الفلسفة واللاهوت . وهذا ما رسم الميزة الاولى الفارقة للرسالة اليسوعية الجديدة في الشرق . لقد اتى الآباء ليقوموا بمجدة رؤساء الطوائف الشرقية المختلفة ، وخصوصاً ليعاونوهم في تهذيب اكليروسهم بواسطة تربية روحية عميقة وثقافة عقلية عالية .

اما الميزة الثانية التي خصّها المنايا الالهية برسالة سورية فكانت المعاونة الفرنسية . وقد كان البشر ، على ما يظهر ، قد فكروا بغير هذا . فان من اليسوعيين الثلاثة الذين نزّلوا في بيروت سنة ١٨٣١ ، كان الاول ، الاب ريكادوتا ، ايطالياً ؛ والثاني ، الاب بلانشه ، فرنسياً من مقاطعة غاب ؛ والثالث ، الاخ هنري ، من هانوفر . وكانت الرسالة نفسها رومانية تتعلق رأساً بالرئيس العام . ثم اتى افرني آخر هو الاب استاف الذي وصل سنة

١٨٣٣ ، وتبعه سنة ١٨٣٦ الاب ريلو البولوني . ويحسن بنا ان نشير هنا الى ان هؤلاء الرجال كانوا كلهم شباناً لم يبلغ احد منهم الخامسة والثلاثين . ولعل هذا شرط جوهري للخلق والانشاء .

فيظهر ان الرسالة الجديدة لم تكن فرنسوية خلافاً للرسالة القديمة التي عُهد بها منذ تأسيسها الى اقليم ليون . وكان من جراء هذا بعض مصاعب شعر بها الآباء حالاً ، ولكن انتظروا ساعة الرب . وفي سنة ١٨٣٤ ذكر الاب ريكادونا ، ذكره . نعمة خاصة من قلب يسوع ، ان قنصل فرنسة سمح للآباء ان يرفعوا فوق اديرتهم الراية الفرنسية . ولم يضر زمن قليل حتى اخذ القنصل والآباء يعملون معاً على حم خلاف شجر بين بعض الكاثوليك فأدّى بهم الى مخاصمات دموية . وفي سنة ١٨٤٣ ارجع الرئيس العام رسالة هذه البلاد الى مقاطعة ليون التي كانت اجود من غيرها في تقديم الرجال ، والتي كانت تشر اذ ذاك بقوة محبة تسري في عروقها . وهكذا التحت حلقات التقليد القديم ، وقد عملت في سبيلها حركة النفوس ذاتها ، كما عملت شريعة التاريخ الحية في فرض القرارات والاحكام . ومن ذاك الحين اصبحت اللغة الفرنسية الى جنب اللغة العربية ، اللغة الرسمية في الرسالة وفي المدارس . ثم جاءت سنة ١٨٦٠ بصروفها المائلة ففخمت هذا الاتحاد بالدم المهرق ، وبالنفوس المضحى بها في سبيل المحبة .

بدأت الرسالة بخدمة الكنائس الشرقية ، وبمعاونة دولة فرنسة . على انها لم تشر بكيانها الشهور التام الا بنفوساتها في بيروت . لم يقيم الآباء اولاً في هذه المدينة ، وقد قلت انهم باسروا تجربتهم الاولى في عين تراز ، ومن هناك تفرقوا في نواح مختلفة ، مفتشين عن الطريق مترددين في النظر الى المستقبل . حتى اتى الاب ريلو ، وكان رجلاً جريئاً من ارباب المآتي العظيمة ، فغير مركز بيروت وادرك ما سيختصها به المستقبل . على انه عندما استوقفت هذه النقطة من الشاطئ نظر ذاك النسر ، لم تكن الجغرافية وحدها التي هدته الى ذلك . بل كان هناك امر آخر اثر فيه ، وفي الآباء معه ، وفي رؤساء الرهبنة ، وهو

حدث ديني ذو شأن . فان بيروت كانت قد اصبحت المركز المهم للعمل البروتستاني . ويجب علينا ، ايها السادة ، ان نتكلم عن هذه الشؤون بكامل الحرية والصراحة والبساطة . فان منشآتنا التعليمية من ابتدائية وثنوية وعالية أسست في بيروت بمد المنشآت البروتستانتية ، وبسبب وجود هذه فيها . وليس في هذه المزاحمة ، بل في هذه المنافسة على الاصح ، ما ينفي اللطف والتأدب ولا ما يوجب الفيظ والكراهة . وان صلاحي الشخصية برؤساء الارشالات البروتستانتية لا تجيز لي الشك في نبل اخلاقهم ، وسمو انظارهم ، وخلوص نياتهم . وهل يتمكن المرسل ، دون ان يحزن قلبه ، ان ينظر بغير عطف الى رجال ابعدوا عن بلادهم في سبيل فتح روعي مقتدين انهم يتبعون نصيحة السيد المسيح القائل : « بشروا بالانجيل جميع الخلائق » . بيد ان البروتستانتية — مهما كانت النيات — تقدم انجيلاً ناقصاً محروماً من مزيتها القاندية وما يفرضه من تدرج المراقب ، تقدم انجيلاً دون عقيدة ولا كنيسة . وهو امر يثقل للكاتوليك خطراً مميئاً . لان حياتنا الدينية الكاثوليكية مؤسسة على صحة الايمان بكليته الذي تحدده سلطة الكنيسة . فاذا هدمتم هذا ، فاننا نؤكد انكم ، مهما كان من سمو غايتكم ومهما كان من روحية الدافع لتبشيركم ، تحقرون ، في النفوس الكاثوليكية التي تتبعكم ، الحياة الدينية واهم ما في الحياة الادبية فيكون واجبنا الاضطرابي ، والحالة هذه ، ان ننشئ تعليمات كاثوليكية متدرجاً يُويد في ايسر النفوس متانة العقيدة ، ويمكن في العلوم العالية سلطة الكنيسة العقلية .

اما هل نجحنا في هذا العمل الذي اخذنا على انفسنا القيام به ، فيكفي لتؤكد ذلك ، ان ننظر الى هذا الحفل ، يكفي ان تتأمل جدران هذه الكلية ، ان نجوب مختبراتها ، ثم يمكننا ان نسمي كلام نياقة الكردينال ، امين السر ، في الكتاب الذي قرأته قبيل هذا الكلام اذ يقول : « ان الاب الاقدس لا ينسى ايضاً ذاك العمل العظيم بين سائر الاعمال الذي كان وسيظل مجد الرسالة الخالد ، الا وهو انشاء كلية القديس يوسف . فانها لا تهتم بالعلوم الدينية فحسب ، بل بسائر العلوم ايضاً . وما هو اعظم من هذا ان الشبية ، التي تختلف الى مصدر الدروس ذاك ، مطبوعة الى انها تجد في الدروس

ذاتها لا اعداء ومقاومين بل معاونين ومساعدين للإيمان والاخلاق الصالحة .»

* * *

بهذه الميزات الثلاث الشاملة : خدمة الطوائف الشرقية ولاسيا اكليروسها ، والمناوئة الفرنسية ، والدفاع عن الايمان ، تبرز الهيئة الشخصية لرسالة الآباء اليسوعيين في الشرق .

وان جمعية يسوع ، من قبل تأسيسها ذاته ، قائمة في طليعة المدافعين عن الايمان . وقد اتت هذه البلاد في سبيل ارسالية جديدة ، مدفوعة بغايتها الاولى التي رسمتها العناية في جوهرها ذاته . وهذا ما يُنتظر منها في المستقبل ايضاً الا وهو اخلاص للايمان لا يتراخى ولا يكل ، وسواء عليها أوجب المساعدة في تثقيب الاكليروس وتوسيع مدارفه ، او تعليم سكان القرى والارياف البسطاء ، او نقل من لا يزالون في ظلال الموت الى نور الحقيقة الساطع ؛ او حماية كمال العقيدة من مساوئ النقد الملاشي الفاسد او من مخاطر نوع من الدين مضطرب التعاليم ؛ او تثبيت حيوية الكنيسة العقلية فتأيد سبقها وامتيازها في العلوم العالية ، في التاريخ ، في الاثرية ، في الآداب واللغات الشرقية ؛ فان جمعية يسوع تسير في كل هذا متقادة بالروح المبكرة التي انشأتها . وليس عليها الا ان تظل امينة لفكرة مؤسسها ، وللسلسلة تقاليدها . وهي ، في خلال كل ما تقدم ، تطيكم قلبها . وليؤذن لي هنا ان اضيف نبذة شخصية فاقول انكم تكافنونها على ذلك بادلة وداد غاية في اللطف والصدق والامانة .

ثم شاء الله فصادت جمعية يسوع الى جنبها ، في عملها هذا ، دولة فرنسة . واننا لسعداء بذلك ، واننا لفخوردون ، واننا لعافرو الجميل . واننا نرى في الامر وعداً للمستقبل ، على كونه لم يكن نتيجة مشروع متفق عليه سابقاً . ولكن بما ان ملائمة نفسية وتاريخية حميمة خالصة كانت تجمع بين روح الامة الفرنسية وروح الامة اللبنانية ، وبما ان دافعاً روحياً عميقاً كان يحمل نفس الشعب الفرنسي ، على رغم بعض الظواهر الماكرة احياناً ، على الاخلاص للايمان الروماني اخلاصاً صريحاً كريماً ، فلنشكر الله جميعاً ، ولنتطلب منه ان يبارك مما فرنسة ولبنان في امانتها المشتركة للكنيسة .